الباب الرابع

التحول من القوة الصلبة الى الناعمة

القوى الكبرى وضوابط التغييرات الاستراتيجية

كثيرًا ما يبني الحالمون في عالمنا العربي والإسلامي توقعاتهم بشأن قضايا الأمة الرئيسة على أطراف وقوى خارجية يعتبرونها الأقدر على حل هذه القضايا والتعامل مع تلك المشكلات فعلى سبيل المثال يعتقد الكثيرون من أبناء الأمة ومثقفيها أن الإدارات الديمقراطية في واشنطن هي الأقرب لقضايا المسلمين من نظرائها من الإدارات الجمهورية، ومن ثم فهم يهللون ويستبشرون حينما يتولى باراك أوباما الديمقراطي مقاليد السلطة في بلاده بدلاً من جورج دبليو بوش الجمهوري كما يعتقد الكثيرون أن حزب العمل الإسرائيلي اليساري أقل تطرفاً ومن ثم أقرب للسعي من أجل السلام من حزب الليكود اليميني، وعليه فهم يحزنون ويجزعون لفوز بنيامين نتنياهو على خصمه أيهود باراك وينسى هؤلاء المستبشرون في الحالة الأولى فوز أوباما بالرئاسة الأمريكيةوالجزعون في الحالة الثانية فوز نتنياهو برئاسة حكومة اليهود أن ما يحكم الدول سياسات واستراتيجيات وليس أفراد وإدارات، ومن ثم فقد تتغير الرئاسات والإدارات تبعاً للعمليات الانتخابية والآليات الدستورية في

حين تبقى السياسات والاستراتيجيات عصية على التغير إلا وفقاً لاعتبارات معقدة وأنماط مدروسة ٠

لا شك أن من المسلم به في التحليل السياسي أن واقع العلاقات الدولية ليس نمطاً أو حالة جامدة، بل يمكن النظر إلى ذلك الواقع باعتباره عملية متغيرة ومتطورة تتسم بالحراك والمرونة والديناميكية وتندفع تلك العملية من سعي الأطراف والقوى المؤثرةفي الواقع الدولي إلى الحفاظ على أوضاعها ومصالحها التي تعكس ما تحوزه من قدرات وإمكانات نسبية وموارد متاحة، فعندما تتغير القدرات بشكل حاسم لدى طرف ما فإن باقي الأطراف وفقًا لتحليل المدرسة الواقعية يسعون إلى إعادة التوازن من جديد عبر تفعيل سياسات واستراتيجيات جديدة تتناسب مع مستجدات الواقع الدولي وتحولاته، حيث تدرك الأطراف المؤثرة في ذلك الواقع أنه في ظل بيئة دولية لا يحكمها إلا منطق التنافس والصراع الذي يتحول إلى سياسات وسياسات مضادة؛ فإن حماية حدودها ومكتسباتها فضلاً عن تحقيق مصالحها واستراتيجياتها المبتغاة؛رهن بامتلاك القوة والسعي الدائم إلى تعظيمها إلى أبعد مدى ممكن٠

وإذا ما تقرر لدينا استقراء أن الواقع الدولي متغير فيما يتعلق بتراتب القوى الكبرى المؤثرة صعوداً وهبوطاً وفقًا لما تحوزه الدول من

محددات القوة فإن واقع تلك الدول لا يتسم بالثبات التام أو الجمود فيما يتعلق بسياساتها واستراتيجياتها وتفاعلاتها الدولية

أنماط التغير الاستراتيجى ومحدداته

هناك أربعة أنماط نظرية للتغير في استراتيجيات الدول وسياساتها الخارجية التي تحكم حركة تفاعلاتها الدولية وفقًا لتشارلز هيرمان٠ أولها: ما يمكن وصفه بالتغير التكيفي ويقصد به التغير في مستوى الاهتمام الموجه إلى قضية ما مع بقاء أهداف السياسة وأدواتها تجاه التعامل مع تلك القضية كما هي دون المساس بها أو تغييرها وثانيها : ما يطلق عليه تغير البرنامج وينصرف إلى تغيير أدوات السياسة ووسائلها دون أي تغيير فيما يتعلق بالأهداف والغايات المقصودة من ورائها وثالثها: ما يسمى بالتغير الهادف وفي هذا النمط تتغير أهداف السياسة ذاتها ومن ثم تتغير أدواتها ووسائلها بالتبعية ورابعها: هو التغير التوجهي وهو أكثر الأنماط الأربعة تطرفاً وجذرية إذ ينصرف إلى تغير يمس التوجه العام للسياسة الخارجية للدولة بما في ذلك تغير الاستراتيجيات وما يتبعها من أهداف وغايات ووسائل وأدوات٠

وإذا كان النمط الأول التغير التكيفي طبقًا لهيرمان يعد نمطًا نظريًا بحتًا دون أن يكون له عائد حقيقي على واقع الاستراتيجيات وأهدافها لذا

فهو من الناحية العملية لا يعد تغيرًا حقيقيًا، والنمط الرابع التغير التوجهي يعد وفقًا لجيمس روزيناو شكلاً نادر الحدوث في العلاقات الدولية، ومن ثم فإن النمطين الثاني والثالث هما الأكثر شيوعًا من بين الأنماط النظرية الأربعة المفترضة للتغير في السياسات الدولية واستنادًا لما سبق بيانه من تعدد أنماط التغير في سياسات واستراتيجيات الدول؛ فإن ثمة محددات تحكم إطار عملية الاستمرار أو التغيير في تلك السياسات، حيث تُعين تلك المحددات مدى حاجة دولة ما إلى تغيير سياساتها واستراتيجياتها أو الإبقاء عليها واستمرارها بشكل كلي أو جزئي، نجملها باختصارفي العناصر التالية:

أولاً: الأهمية النسبية لأهداف السياسة .

ثانيًا: المدى الزمني اللازم لتحقيق الأهداف الاستراتيجية للدولة .

ثالثًا: مدى توافر الأدوات والوسائل المناسبة لتحقيق أهداف الاستراتيجية .

رابعًا: المقدرات النسبية للدولة، وتعني حساب حجم الموارد التي تمتلكها الدولة واللازمة لتنفيذ السياسة المرادة .

خامسًا: الوحدات الدولية التي تتعامل معها أو تستهدفها السياسة.

سادسًا: القواعد الحاكمة للمباريات على الساحة الدولية، ويقصد بها الحدود المتاحة والمسموح بها ٠

المحددات السابقة تحكم -إلى حد كبير- سلوك الدول فيما يتعلق باستراتيجياتها على المستوى الدولي وبناءً على ما سبق من محددات تقرر الدولة وجهتها من الاستمرار أو التغيير فيما تعتزم تنفيذه من سياسات على الصعيد الدولي

التغيير الاستراتيجى ما بين الجذري والمتدرج:

تتجه الدول عادة نحو إقرار الأبعاد الرئيسية لسياساتها الهادفة إلى تحقيق مصالحها وغاياتها بعد كثير من التمحيص والتدقيق والدراسات المتعلقة بواقعها وواقع الآخرين المنافسين والمستهدفين، ومن ثم فإن تلك السياسات تتميز بقدر من الثبات النسبي ولا نقول الجمود، حيث يتسم التغيير الذي قد يطرأ على السياسات الخارجية للدول واستراتيجياتها بالتدرج، ومن ثم فإن حدوث تغييرات جذرية في تلك السياسات لا يتم إلا في حالات نادرة، في حين يكون السائد في سلوك تلك الدول هو قبول التغيير المحدود في الأبعاد الهامشية لسياساتها دون المساس بأبعادها الرئيسية والأساسية بشكل جذري شامل٠

ويمكن تفسير تدرج التغير في السياسات الدولية بالنمط السائد في العلاقات الدولية وارتباطاتها والذي يفرض على الأطراف الفاعلة اتباع سياسات معينة، الأمر الذي يجعل من العسير عليها إحداث تغييرات مفاجئة في استراتيجياتها على المدى الزمني القصير أو حتى المتوسط، إضافة إلى ارتباط تلك الاستراتيجيات في الغالب بمصالح الدولة العليا وأمنها القومي وهي من الأمور التي تتسم بالثبات وعدم القابلية للتغيير.

أمريكا بعد أكثر من عشر سنوات من الاحتلال العسكري لأفغانستان، وخسائر مادية وبشرية مهولة، وصلت إلى قناعة أكيدة مفادها: أن الحسم العسكري لن ينتهي بشيء في هذا البلد المشتهر تاريخيًا بأنه مقبرة الغزاة، وأن على الأمريكان أن يلجأوا إلى طريقة أخرى لتكريس وجودهم في هذه المنطقة الحساسة من العالم، ومن ثم كان التحول الأمريكي المعروف، من القوة الخشنة إلى القوة الناعمة التي ثبت أنها الأكثر فاعلية مع الشعوب العنيدة الصلبة، أو بعبارة أخرى مع الشعوب المسلمة، الأستاذ بجامعة هارفارد المشهورة جوزيف ناي الذي صاغ نظرية القوة الناعمة، يصفها بأنها القدرة على الحصول على النتائج من خلال الجذب وليس عن طريق القوة أو الدفع، والتعليم كان دائمًا موردًا هامًا لتحقيق ذلك، فالتعليم كان دومًا من أسلحة التغلغل وبسط النفوذ،

والمقدمة الموطئة للاحتلال الفكري والثقافي والاجتماعي.

الجامعة الأمريكية نشأت أصلاً لتكون هيئة تنصيرية ذات غطاء تعليمي، وبالتوازي مع الهدف الرئيس أخذت الجامعة في التركيز علي إعداد جيل من النخب الشابة، الذين سيقودون البلاد فيما بعد، بحيث تكون ثقافتهم وطريقة تفكيرهم أمريكية صرفة، وبالتالي يواصل الأمريكان احتلالهم للبلاد، ولكن بتكلفة زهيدة، احتلال بالوكالة عن طريق النخب الحاكمة في البلاد المسلمة، وقد آتت تلك الأفكار والسياسات أكلها في منطقة الشرق الأوسط التي شهدت انطلاق هذه الفكرة الاستعمارية الماكرة، في القاهرة وبيروت، فمعظم الساسة الذين لعبوا أدوارًا حاسمة في الشرق الأوسط من خريجي هذه الجامعة، أما على المستوى العلمي والأكاديمي فالجامعة الأمريكية لم تفد المجتمعات العربية والإسلامية في شيء يذكر، فعلى الرغم من مرور قرابة المائة عام على إنشاء الجامعة في القاهرة وبيروت إلا أنها لم تقدم عالمًا واحدًا في المجالات العلمية المتخصصة، ولم تقدم معاملها اختراعًا مفيدًا أو اكتشافًا مسهمًا، وغاية الجهد البحثي لهذه الجامعة منصب على الغرض الاستعماري التي نشأت الجامعة من أجله في الأساس .

فالجامعة الأعرق في المنطقة لا يوجد بها حتى كتابة هذه السطور سوى مركزين للبحوث، مركز البحوث الاجتماعية الذي أنشئ سنة ١٩٥١، ومركز بحوث الصحراء، أما الأنشطة الأخرى للجامعة فهي

تصب مباشرة في العمل التنصيري، فهي تمد يد العون والمساعدات الطبية والمادية لأفقر أحياء القاهرة، وتقيم مشروعات مريبة في المناطق التي يسود فيها الجهل والفقر والمرض وربما لعبت هذه الجامعة دورًا استخباراتيًا، كما كشفت بعض الوثائق السرية المسربة سنة ٢٠١٠ من البنتاجون ووزارة الدفاع والمالية الأمريكية عن صفقة مخابراتية بين البنتاجون والجامعة الأمريكية لعمل أبحاث معلومات حساسة عن المجتمع المصري، تحت غطاء البحث العلمي ٠

أما في أفغانستان، فقد تأسست الجامعة الأمريكية في كابول عام ٢٠٠٤، من قبل كبار رجال الأعمال وأعيان وعلمانيين أفغان، وتشترك مع المؤسسات التعليمية في المرحلة الجامعية، الدراسات العليا ومناهج التنمية المهنية، الجامعة تجذب الطلبة من البشتون والهزارة والأوزبك والطاجيك والتركمان وغيرهم الكثير، مما يهيئ البيئة لقبول أفكار التعايش والسلام بالمفهوم الأمريكي بين جميع شرائح المجتمع الأفغاني، في مايو ٢٠١١ تخرجت أول دفعة من الجامعة، وعددها ٣٢ طالبًا: ٩ نساء و٢٣ رجلاً، مع منحتين دراسيتين بأمريكا، وفي عام ٢٠١٢، تخرج ٥٢، مع ٦ منح دراسية، والجدير بالذكر أن إقبال النساء على الجامعة أكبر من الذكور بنسبة ٢٥% بالطبع الأمريكان لا يرغبون في تطوير أفغانستان ولا مدينتها، بقدر ما يريدون تخريج جيل أفغاني جديد قادر على ضبط البلاد القلقة، ويغير من تركيبتها ويسلخها عن هويتها

وقوميتها، بالصورة التي تتماشى مع المصالح الأمريكية في المنطقة، جيل يجمع بين الجنسية الأفغانية والعقلية الأمريكية، لونه ولسانه أفغاني، وتفكيره وقراره ومنهجه أمريكاني، وبالتالي فإن أمريكا في حاجة لتعديل خططها الرامية لسحب آخر جندي أمريكي كما هو معد سلفًا في ٢٠١٤والهدف المعلن لهذه الجامعة كما قالها صراحة كريس تايلور هو: الالتزام بإعداد جيل جديد من القادة الأفغان الذين سيدفعون بأفكار جديدة لمكافحة التطرف، ورفض الفساد، وتبني المساواة بين الرجل والمرأة، وإقامة علاقات إقليمية على المدى الطويل، وإسماع صوت الشباب الأفغان، الذين هم مستقبل بلادهم، وبناء مجتمع معتدل وحر وهو المجتمع المثالي المتوافق مع المصالح والمخططات الأمريكية .

ونظرة التنصير القديمة للمنصر القس زويمر إن الشجرة لا بد أن يقطعها أحد أغصانها، ما زالت تحكم العقل الغربي، ففي جلسة استماع أمام لجنة القوات المسلحة بمجلس النواب، شهد الجنرال جون ألين قائد المساعدة الدولية لإرساء الأمن في أفغانستان إيساف أنه على مر التاريخ نادرًا ما تم هزيمة التمرد من قبل القوات الأجنبية، وعلى العكس من ذلك، فقد تعرضوا للهزيمة من قوات محلية يعني أن المقاومة التي وصفها بالتمرد، لن تغلب إلا على أيدي محلية من نفس أبناء البلد المحتل، أي سياسة القتال بالوكالة، واصطناع العملاء، ورعاية الغصن الذي سيقطع الشجرة، فهل سيحقق الأمريكان نفس النجاح الذي حققوه

بجامعتهم المشئومة من قبل في الشرق الأوسط، أم ستتحطم أحلامهم ومخططاتهم على صلابة شعب لا يعرف اليأس أبدًا؟

أسباب التغيير الجذري:

غير أن التدرج لتغير السياسات لا ينفي إمكانية حدوث تحولات جذرية في سياسات الدول واستراتيجياتها، غير أن ذلك التحول الجذري – وبمنطق الاستقراء والتتبع التاريخي – ليس من سمات الدول الكبرى، ولكنه من سمات الدول النامية والتسلطية عموماً ومرد ذلك إلى عاملين أساسيين أولهما: شخصنة القرار السياسي في ذلك النمط من الدول، فالقائد السياسي يهيمن على عملية صنع السياسات وصياغة الاستراتيجيات في ذلك النوع من نظم الحكم، ومن ثم فإن سياسات الدولة واستراتيجياتها تتأثر بعقائد ذلك القائد ورؤيته للعالم، لذا فإنه من الوارد أن تتغير توجهات دولة ما إذا ما تغير قائدها أيًا كانت طريقة التغيير، كما أنه من الوارد أيضًا أن تتغير توجهات تلك الدولة مع بقاء القائد نفسه في منصبه وذلك إذا ما حدث تغير في النمط العقدي لذلك القائد كأن يتحول من تبني الاشتراكية إلى اعتناق الليبرالية أو من الأخذ بمبدأ التخطيط الاقتصادي المركزي إلى تغليب اقتصادات السوق وهكذا أما العامل الثاني فهو الانشقاقات السياسية التي قد تحدث داخل النخبة الحاكمة في النظام المتسلط وما تؤدي إليه من عدم وجود إجماع داخلي

حول الخطوط العريضة والرئيسية في استراتيجيات الدولة، حيث تدفع انشقاقات النخبة الحاكمة باتجاه نشوب صراعات داخلية قد تؤدي إلى تفوق أحد الأجنحة داخل تلك النخبة وتفردها بالسلطة الأمر الذي ربما يعمل على إحداث تغييرات جذرية في سياسات واستراتيجيات تلك الدولة بشكل دراماتيكي وهناك أربعة عوامل حاسمة يمكن القول إنها تحدد درجة تغيير السياسات والاستراتيجيات ومداه في ذلك النوع من النظم السياسية:

أولها: تصورات النخبة الحاكمة ورؤيتها بشأن الدولة وقوتها ودورها وحدود ذلك الدور.

وثانيها: رؤية النخبة الحاكمة بشأن طبيعة النظام الدولي وموقع الدولة من ذلك النظام وحدود التأثير فيه والتأثر به.

وثالثها: البدائل المتاحة للسياسات الحالية للدولة ومدى ملاءمتها لتصورات تلك النخبة .

ورابعها: ما يفرضه ذلك التغيير في سياسات الدولة من تكلفة مادية ومعنوية ومدى تحمل تلك الدولة لنتائج وتبعات ذلك التغيير.

عودة روسيا والصين

منذ سقوط الاتحاد السوفييتي لم تتوقف مراكز الأبحاث الاستراتيجية الأمريكية عن السعي لإيجاد السبل الكفيلة لضمان هيمنة الولايات المتحدة على العالم كقطب أوحد، لكنها لم تستطع رغم كل ما بذل من جهود، تجاهل احتمالات عودة روسيا للمنافسة على الزعامة العالمية ولم يكن السؤال المطروح وقتها هو هل ستعود روسيا أم لا كقوة عالمية بعد تفكك الاتحاد السوفييتي وانهياره؟ بل كان السؤال المطروح دائماً، هو متى ستعود روسيا؟ لكن السؤال الأهم هو كيف يمكن عرقلة هذه العودة؟ وفي الواقع لم تكن روسيا وحدها المعنية بمثل هذا السؤال، فقد وصل الحرص الأمريكي على فرض وتأمين بقاء الهيمنة الأمريكية على العالم لدرجة وضع أوروبا واليابان والقوى العالمية والإقليمية الصاعدة خاصة الصين والهند ضمن الدائرة ذاتها، أي منعها من أن تتحول إلى قوة قادرة على منافسة الزعامة الأمريكية للعالم، لكن ما حظيت به روسيا من اهتمامات وما تعرضت له من سياسات أمريكية فاق غيرها من القوى العالمية والإقليمية الأخرى.

فبعد أن تمكنت الولايات المتحدة عبر الضغوط الاقتصادية والشروط السياسية من اجبار روسيا على انتهاج سياسات وبرامج اقتصادية تجعلها قابلة للخضوع الدائم للمطالب الأمريكية والغربية، بدأ الاتجاه

السريع إلى دمج حلفاء روسيا السابقين في شرق ووسط أوروبا في المؤسسات الاقتصادية والسياسية والعسكرية الغربية، خاصة الاتحاد الأوروبي والحلف الأطلسي وبدأ الاتجاه نحو اختراق الجمهوريات السوفييتية السابقة وتشجيعها على التمرد على روسيا وإغراء بعضها بالانضمام لحلف الناتو خاصة جورجيا وأوكرانيا، تمهيداً لعزل روسيا وفرض طوق حولها، ثم جاء التوجه الأمريكي لبناء وإقامة درع صاروخية على مسافة قريبة من روسيا خاصة في بولندا ، تحت زعم التحسب لخطر الصواريخ البالستية المحتملة من محور الشر إيران وكوريا الشمالية لاستكمال محاصرة روسيا وتحييد قوتها النووية وحرمانها من أهم مصادر قوتها المنافسة للولايات المتحدة .

فبعد أن اعترفت الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبي باستقلال كوسوفا عن صربيا، وما يعنيه ذلك من اخراج كوسوفا من العالم السلافي الحليف لروسيا، ومن دون أي اعتبار للرفض الروسي لهذه الخطوة أقدمت الولايات المتحدة على ممارسة المزيد من سياسات الاستفزاز لروسيا، وجاء توقيع وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة كوندوليزا رايس رسمياً على اتفاق إقامة الدرع الصاروخية الأمريكية في بولندا مع نظيرها اليولندي ، رغم الرفض والتحذير الروسي الذي وصل إلى التهديد باستخدام الأسلحة النووية في مواجهة هذا الدرع الصاروخي ليعلن أن الولايات المتحدة وصلت إلى الحد الأقصى في

الضغط على روسيا التي لم يعد أمامها غير خيارين: إما أن تقبل الأمر الواقع وترضى بعزلها نهائياً خصوصاً أن التوقيع الأمريكي مع بولندا على اتفاقية الدرع الصاروخي على أراضيها تزامن مع اشارات أمريكية وألمانية بضم كل من جورجيا وأوكرانيا إلى حلف الناتو، وإما أن ترفض وتعلن التحدي للإرادة الأمريكية ٠

من هنا بالتحديد يمكن فهم الأسباب الحقيقية التي دفعت روسيا إلى التدخل العسكري القوي والحاسم ضد جورجيا وإجبارها على سحب قواتها من أراضي أقليم أوسيتيا الجنوبية، وما تبع ذلك من سياسات ومواقف تصعيد روسية فاجأت الأمريكيين لدرجة أربكت ردود فعلهم وانتزعت منهم القدرة على المبادأة ووضعتهم في الدائرة الضيقة لردود الفعل ٠

الأهم من هذا كله هو ما كشفته إدارة روسيا لهذه الأزمة من حقائق أكدت أن موازين جديدة للقوة أخذت تفرض نفسها على الواقع الأوروبي، وأن أوروبا عادت مجدداً ساحة للصراع بين روسيا والغرب، وأن الحرب الروسية الجورجية لم تكن إلا أزمة كشفت واقع دولي جديد أرادت روسيا الافصاح عنه فقد ظهر الموقف الروسي متماسكاً وقوياً وغير قابل للتنازل أو للتراجع على عكس الموقف الأمريكي، كما نجحت روسيا في منع صدور أي قرار من مجلس الأمن يدين تدخلها العسكري

في جورجيا أو يفرض عليها الانسحاب، لكنها قبلت اتفاق لوقف إطلاق النار فقط، واستخدمت موسكو لهجة قوية مماثلة في الرد على إدانة الدول الصناعية الكبرى لتحركاتها في القوقاز ٠

كانت أزمة جورجيا مجرد مؤشر على العودة الروسية التي تأكدت بعد ذلك في مواقف روسية مستقلة عن واشنطن ودول الاتحاد الأوروبي نحو أزمة البرنامج النووي الإيراني، والأزمة السورية، لكن الأهم هو التوجه الروسي نحو الصين والهند ودفع منظمة شنغهاي، لتكون إيذاناً بفرض قطب دولي جديد قادر على التأثير وبقوة في مجريات الصراع الدولي، وهي المنظمة التي تضم روسيا والصين مع أربع جمهوريات سوفييتية سابقة هي: كازاخستان وأوزبكستان وطاجيكستان وقيرغيزستان، إضافة إلى أربع دول أخرى تتمتع بصفة مراقب من أبرزها الهند وإيران٠

رهان روسيا الأساسي في هذه المنظمة يتركز على كل من الصين والهند وكيفية التقريب بين البلدين واحتواء كل ما تحاول الإدارة الأمريكية فعله نحو الهند للوقيعة بينها وبين الصين أولاً والحيلولة دون توافقهما، والسعي ثانياً لإكساب العلاقات الأمريكية الهندية خصوصية تمكن واشنطن من أن تفرض وجودها قوياً في آسيا اعتماداً على

التحالف مع الهند، في وقت ترى فيه الإدارة الأمريكية أن أولوية واشنطن الآن باتت مركزة على آسيا أكثر من أوروبا والشرق الأوسط.

ربما يكون الصعود الصيني المخيف للأمريكيين سبباً وراء حسم الإدارة الأمريكية لهذا التوجه، إضافة إلى التحسب من البروز القوي للهند من أجل التقدم فالصين بحلول عام ٢٠٤٩ الذي سيصادف احتفالها بمئوية جمهوريتها سوف تحتفل بتبوّء ناتجها المحلي الإجمالي المرتبة الأولى على مستوى العالم فلدى الصين حالياً ١٩ تريليون دولار احتياطي نقدي، أي ما يعادل ثلاثة أضعاف احتياطيات دول الاتحاد الأوروبي مجتمعة، لكن الأهم من ذلك هو أن هذا التقدم الاقتصادي الصيني لم يأت عبر نظام اقتصادي رأسمالي تتزعمه الولايات المتحدة، ولكنه جاء عن طريق اقتصاد موجه، وربما لا يعرف الكثيرون أن معظم الشركات الكبرى في بورصة شنغهاي إما أنها مملوكة بالكامل أو جزئياً للدولة كما أن معدل النمو الاقتصادي الصيني بلغ خلال ربع القرن الأخير ٩%، وازداد دخل الفرد ستة أضعاف، وتم صعود ما لا يقل عن ٤٠٠ مليون صيني إلى ما يتجاوز حد الفقر .

التقدم الصيني لم يكن اقتصادياً فقط مقارنة بالوضع الأمريكي لكنه امتد إلى كل نواحي القوة الشاملة للصين، وأصبحت القوة الناعمة الصينية متفوقة هي الأخرى بقدر يوازي تقريباً التقدم الاقتصادي فوفقاً

لتصنيف فورتشين أخيراً لأكبر الشركات العشر في العالم، لم يكن للولايات المتحدة غير اثنتين فقط هما والمارت في الترتيب الأول، وايكسون موبيل في الترتيب الثاني، في حين كانت هناك ثلاث شركات صينية من بين الشركات العشر الكبرى في العالم هي: سينوبيك وستيت جريد، وشركة بترول الصين الوطنية، وأخيراً بدأ واضعو السياسات في الصين يدركون أن مصالح الصين الاقتصادية باتت تمضي بمعدلات أسرع من الاستطاعة العسكرية اللازمة لحماية هذه المصالح، لذلك قرروا العمل على تجسير الفجوة بين النمو والمصالح الاقتصادية والمقدرة العسكرية.

في هذا السياق اعطيت الأولوية لحماية الخطوط والطرق البحرية لناقلات النفط، وعملت الصين على تقديم تمويل ومساعدات تقنية ولوجستية لتشييد موانئ وخطوط أنابيب بترول في باكستان وبنجلاديش وبورما وبمجرد الفراغ من إكمال هذه المنشآت ستوجه الصين مخططاتها وقواتها البحرية نحو الشرق الأوسط والمحيط الهندي حيث لاتزال واشنطن تهيمن عليهما.

روسيا وأمريكا: القوة الصلبة والقوة الناعمة

منذ انتهاء الحرب الباردة مع انتهاء الاتحاد السوفيتى، والولايات المتحدة هى من يستخدم القوة الصلبة فى تحقيق أهدافها العدوانية تجاه

الدول الأخرى، بينما كانت روسيا مكتفية باستخدام القوة الصلبه داخل أراضيها خاصة ضد الشيشان دون أن تخرج خارج حدودها ، حتى جاءت أحداث جورجيا ، لتتبادل روسيا والولايات المتحدة الأدوار ، اذ تدخلت روسيا عسكرياً لتفرض مصالحها بالقوة العسكرية، بينما وقفت الولايات المتحدة عند حد استخدام أساليب وأدوات القوة الناعمة، إلى درجة باتت معها تبرر هذا الخيار، حيث أعلن مسئولون أنهم نصحوا جورجيا بعدم الدخول فى مواجهة عسكرية مع روسيا ، لأنها ستكون فى صالح روسيا،وهو ما يعنى أنهم أبلغوا جورجيا بعدم قدرتهم على التدخل العسكرى ، أو تقديم الدعم العسكرى فى مثل تلك المعركة إلخ٠

وفى خروج القوات الروسية خارج الحدود ، والاعتداء على جارة لها ، تبدأ روسيا في تحقيق مصالحها باستخدام القوة الصلبة ، وفق ذات المبررات التى كانت تعلنها الولايات المتحدة والغرب فى الاعتداء على الدول الأخرى٠

لقد جاء استخدام القوات المسلحه الروسية ضد جورجيا ، وفق تبريرات تتعلق بأوضاع داخليه فى هذا البلد غزو القوات الجورجية لأحد أقاليمها الداخلية بما يذكر بتبريرات العدوان الأمريكى على العراق وأفغانستان لأسباب داخلية ، إذ بررت الولايات المتحدة غزوها لأفغانستان، كما بررت غزوها للعراق بتصرفات صدام ضد الأكراد والشيعة وبسعيها لتحقيق الديمقرطية داخل العراق وهو ما يعني أننا

أمام تبريرات استخدام القوة المسلحة من دولة ضد أخرى، بسبب أحداث داخلية فى الدولة المعتدى عليها من قِبل أمريكا وروسيا كما يعنى التوسع فى ظاهرة تحقيق الدول الكبرى لنفوذها بالاعتداء العسكرى على الدول الأضعف.

لكن الامر يطرح زاويه أخرى هامة، تتعلق بالفارق بين استخدام القوة الصلبة فى الصراعات، من جهة ، واستخدام وسائل القوة الناعمة من جهة أخرى، في ضوء تبادل الأدوار بين الولايات المتحدة وروسيا.

الغزو والاحتلال والقتل والتدمير، يجري بالقوة الصلبة، هكذا الأمر واضح، لكن من قال أن القوة الصلبة هى وحدها من تقتل وتدمر ، انما هو مخطئ فى التقدير حيث الغزو والاحتلال والقتل والتدمير يجري وبذات نتائجه، باستخدام القوة الناعمة، حتى يمكن القول أن من تصور يوماً أن القوة الصلبة وحدها هى التى تقتل وتدمر وتبيد وتحتل، ولم يفهم أن الفتنة أشد من القتل مات بالقوة الناعمة وبالفتنة ،وهو يصرخ مندهشاً مما يجرى له وتلك هى اخطر مشكلات الوضع العربي السياسي والثقافي والإعلامي، على صعيد النخب والجهود معاً؛ إذا جاز الوصف.

والقوة الصلبة ،هى استخدام للقوة العسكرية والأمنية السلاح فى الفعل المباشر من دولة ضد دولة أخرى ومن جيش ضد آخر، وفى ذلك يقال أن الحرب هى امتداد للسياسة بوسائل الاكراه والقتل والتدمير، وان السياسة الخارجية هى امتداد للسياسة الداخلية أما القوة الناعمة، فهى

مجموع الوسائل السياسيبة والدبلوماسية والاقتصادية والقانونية والاعلامية ،التى تستخدمها الدول ضد بعضها البعض لفرض إرادتها على بعضها البعض أي لتحقيق سياستها الخارجية التى هى امتداد للسياسة الداخلية ٠

تحولات السياسة والإستراتيجية

شهدت الولايات المتحدة بعد عام ١٩٨٩ موجة مراجعة شاملة للسياسات والمواقف الأمريكية قائمة على الانكفاء للداخل، وتقليص الإنفاق العسكري، حتى أن محطات الإعلام الأمريكي خفضت مكاتبها الخارجية بنسبة الثلثين، ولكن أحداث ١١ سبتمبر أعادت السياسة الخارجية مرة أخرى إلى الواجهة وجعلتها مركز الإستراتيجية الأمريكية فقد كشفت الأحداث عن الحاجة إلى إستراتيجية أمريكية جديدة قائمة على القوة العسكرية والقوة الناعمة التي لا تقل أهمية عن السلاح والتقنية ويقصد بها الثقافة والإعلام، إذ تبين للأمريكيين أن العالم يكرههم، فتنبهوا إلى ضرورة تنفيذ حملة إعلامية وفكرية تحت عنوان لماذا يكرهوننا؟٠

ويرجع عدم انتباه الأمريكان إلى كره العالم لهم إلى انشغالهم بأنفسهم، أو كما قال أحد مسؤولي محطات التلفزيون الأمريكية العملاقة إن الشباب الأمريكي يهتم بنظام التغذية والريجيم أكثر من اهتمامه بالخفايا المعقدة لدبلوماسية الشرق الأوسط ٠

لكن الأهم أن ثورة المعلومات والاتصالات أتاحت الفرصة للاعبين جدد غير الحكومات للعمل والتدخل والتأثير، وحدث ما يمكن تسميته بخصخصة الحرب، فقد استطاعت منظمات أهلية صغيرة ومحدودة في مناطق فقيرة وهامشية ومعزولة من العالم أن تشغل الولايات المتحدة وتهددها.

وتعتبر القوة الافتراضية أحدث أشكال القوة، التي أصبحت أكثر تأثيراً في الحياة اليومية للأفراد، وليس الدول فقط، حيث أصبح الأفراد قادرين على استخدامها في شن حروب غير تقليدية عبر هجمات الإرهاب الإلكتروني ،وإطلاق الفيروسات والتجسس الإلكتروني، والاختراق المباشر لشبكة المعلومات .

ان مفهوم القوة مفهوم اجتماعي، يتأثر بالتطورات التي تحدث في العالم، خاصة ما يتعلق منها بالمصادر الفعلية والمحتملة لتهديد الأمن، فالتغير في القوة، يُعد نوع من الاستجابة للمصادر المدركة للتهديد.

<u>ديناميكية التحول في:</u>

<u>الصين من القوة الصلبة إلى القدرة الناعمة</u>

أن الأدبيات الصينية تناقش مفهوم القوة الناعمة ولكن من منظور صيني، وتناقش كيف يمكن دعم القوة الناعمة الصينية واعتبار أن

التركيز علي هذه القوة وتطويرها يجب أن يكون أحد الاستراتيجيات الرئيسية للصين في عصر العولمة، غير أن ما يلفت النظر في هذه المعالجة وفي سؤالها عن كيفية تنمية القوة الناعمة الصينية قولها: أن نقطة البداية في هذا يجب أن تبدأ من حيث فشلت الولايات المتحدة فى استخدام قوتها الناعمة في بناء الامبراطورية الأمريكية في العالم، وعلي العكس فان الصين يجب ألا تتبع الولايات المتحدة في التعامل مع النظام العالمي،بل يجب أن تنظر إلي التعدد الديمقراطي باعتباره الهدف الذي تنشده، وعلي الصين أن تعارض سياسات القوة القديمة، وأن تؤسس لسياسة دولية جديدة وتواصل هذا الطريق لكي يكون مصدر قوة الصين الناعمة وأن يتوازي مع ذلك إسراع الصين فى عملية إصلاحها الشامل والداخلي بما في ذلك إصلاح نظامها السياسي وتنمية سياساتها الديمقراطية ولكي تصبح أكبر بلد ديمقراطي بسمات اشتراكية ولأن السياسات الديمقراطية هي أفضل إدارة لتطوير القوة الناعمة، فان أكبر مصدر لقوة الصين الناعمة هو مصادرها البشرية الغنية ولكن الصين تحتاج لحكم الشعب والنظام الديمقراطي لتحويل المصادر البشرية إلي قوة ناعمة.

أمريكا من القوة الصلبة إلى القوة الناعمة

رغم أن مصطلح القوة الناعمة يعد من بين المصطلحات المحدثة في المجال الأكاديمي والخطاب السياسي والإعلامي الغربي إلا أنه قد شهد انتشارا واسع النطاق فبعد تفكك الاتحاد السوفييتي وتوحيد ألمانيا وامتداد المنظومة الليبرالية في الاقتصاد والسياسة إلى الشق الشرقي من القارة الأوروبية، ومواطن كثيرة من أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، لم يعد ثمة ما يوحي فعلاً بأن هناك قوة ما قادرة على الوقوف في وجه النموذج الأمريكي فضلا عن مقارعته والتفوق عليه إلا أن مبالغة الولايات المتحدة الأمريكية في استخدام القوة العسكرية والتوسع الخارجي، والإعراض عن كل أشكال الوفاق والتحاف الدوليين قد أحاطها بركام هائل من الكراهية بين مختلف الشعوب وسائر قارات العالم تقريبا، بما حد من انسياب قوتها الناعمة وتأثيرها الخفي ورغم أن التراجع الأمريكي في مجال القوة الناعمة لم يكن وليد احتلال العراق سنة ٢٠٠٣ إلا أنه ليس ثمة شك في كون هذا الحدث كان له بالغ الأثر على صورة أمريكا وعلى نفوذها السياسي والثقافي في عموم الساحة العالمية وفي منطقة الشرق الأوسط على وجه الخصوص حيث أريد للعراق أن يكون مختبراً عملياً لعقيدة المحافظين الجدد في تغيير الأوضاع جذرياً في منطقة الشرق الأوسط، ومنه إعادة تشكيل الخارطة العالمية برمتها بقوة

السلاح، بيد أن مجريات التدافع السياسي والعسكري في هذه النقطة من العالم بالغة التعقيد والحساسية قلبت الأوضاع رأساً على عقب وليس من المنتظر أن تتبخر القوة الأمريكية من الوجود، أو أن تشهد انكساراً مريعاً في وضعها لمجرد كون الجيش الأمريكي بات يواجه صعوبات عسكرية في أفغانستان والعراق، أو حتى لمجرد تزايد الكراهية لها في العالم وتضاؤل قوتها الناعمة ولكن من المؤكد هنا أنها ليست خارج قانون التاريخ والاجتماع السياسي الذي يسري على جميع الأمم والإمبراطوريات فالولايات المتحدة الأمريكية شأنها في ذلك شأن الإمبراطوريات القديمة والحديثة التي تعاقبت، السيطرة الدولية لن تستطيع الاستحواذ على مصير العالم إلى أمد لا نهائي، ومن دون أن يصيبها شيء من الضعف والتحلل سواء نتيجة تطورات الأوضاع الدولية من حولها، أو نتيجة تكاثر أخطائها ومطباتها أو لكليهما معاً، وفعلاً هذا ما نشهده اليوم بصورة ملموسة مصحوبا بأزمة مالية واقتصادية خانقة لا بد من أن تترك آثارها على النفوذ الأمريكي فى العالم.

العراق من القوة الصلبة إلى القوة الناعمة .. هل ينجح؟

تسعى الدول لتحقيق أمنها من خلال تسخير كل مصادرها المادية لتحقيق قوتها الفعلية والكامنة، خاصة القوة العسكرية، التي تعد من وجهة نظر

الواقعية البعد الأهم في قوة الدولة، حيث تتحدد أهمية العناصر المادية الأخرى بالقدر الذي يقوم به البعد العسكري هذه النظرية ظلت ولفترة طويلة من الزمن تحكم واقع العلاقات ما بين الدول، إلى أن جاءت نظرية القوة الناعمة فرفضت أفتراضات المدرسة الواقعية في العلاقات الدولية، واعتبرت أن الدولة ليست محدداً رئيسياً للسياسة الدولية مبررة ذلك بأن الساحة الدولية شهدت تنامياً في أدوار فاعلين جدد لعبوا دوراً مؤثرا في سلوك الدولة وطبقاً لنظرية القوة الناعمة هناك ثلاثة مصادر رئيسية للقوة الناعمة تتمثل فى القيم السياسية، عندما يتم تطبيقها بصدق داخل وخارج الدولة، والسلوك الخارجي للدولة، عندما يراه الآخرون مشروعاً، وكذلك ثقافة الدولة، عندما تكون جاذبة للآخرين إذ يعبر عنها ببعدين هما ثقافة النخبة والثقافة الشعبية.

القوة الناعمة لا تعتمد على القوة الصلبة، خلافاً لبعض الدول التي تتمتع أحياناً بثقل سياسي أكبر من وزنها العسكري أو الاقتصادي نظراً لتمدد مفهوم مصلحتها القومية ليشمل قضايا ذات جاذبية، مثل المعونات الاقتصادية أو حفظ السلام أو القيام بأدوار على المسرح السياسي، تفوق الامكانات الفعلية لهذه الدولة وتكون أكبر من حجمها،وربما يكون النموذج القطري حاضراً أمامنا من خلال ما تتمتع به هذه الدولة الصغيرة من قوة ناعمة كأستخدامها أداة الاعلام ولقد ظل العراق لعقود طويلة يعتمد في سياسته الخارجية على عناصر القوة الصلبة، أموال

ضخمة ومؤسسات عسكرية متضخمة وأحزاب شوفينية وقيادة متسلطة على رقاب العراقيين كانت هي الأدوات الأساسية نفسها لقوة العراق الصلبة في الماضي، على الرغم مما يتمتع به من قدرات ناعمة تؤهلة للعب دور قيادي على المستوى الاقليمي والعالمي، حيث يعتبر العراق من الأمم العريقة في التاريخ وذات حضارة قديمة لذلك لابد أن يحوي قوة ناعمة في مفاصل عديدة من وجوده التنظيمي والاداري لذلك فأن بناء قوة ناعمة عراقية بات ضرورة وطنية لاتقل أهمية عن بناءِ القوات المسلحة العراقية، لأنها الوسيلة الوحيدة لاستعادة العراق مكانته الاقليمية، والعالمية التي تتناسب مع مقومات القوة لديه، بعد تخليه عن عوامل القوة الصلبة التي كان يمتلكها ويعتبر العراق بلد الحضارة الأولى، وعلى ضفافه نشأة وترعرعت أولى الامم، وأحتضن ومنذ القدم تأريخ يزخر بالانجازات والثقافات ووعائه التراثي غني جداً فهو بلاد الشعراء والفنانين وبلاد الأدب والنحت والرسم والموسيقى، وهم الأفضل على مستوى الوطن العربي بل وحتى على المستوى العالمي،كما كان العراق يوماً مركز الخلافة العباسية، حين كانت بغداد قبلة العلماء والمفكرين.

المسلمون والقوة الناعمة يعتقد جوزف ناي أن ثمة متغيرات دولية واجتماعية وعلمية كثيرة، تدفع باتجاه أن تكون القوة الناعمة هي

مصدر القوة الأساس لدى الأمم والشعوب المتقدمة ويشير في كتابه الى أن القوتين الصلبة والناعمة مترابطتان لأنهما معا من جوانب قدرة المرء على تحقيق أغراضه بالتأثير على سلوك الآخرين وما يميز بينهما هو الدرجة في طبيعة السلوك وفي كون الموارد ملموسة فالقوة الآمرة - أي القدرة على تغيير ما يفعله الآخرون - يمكن أن ترتكز على الإرغام أو على الإغراء أما قانون التعاون الطوعي - أي القدرة على تشكيل ما يريده الآخرون - فيمكن أن ترتكز على جاذبية ثقافة المرء وقيمه أو مقدرته على التلاعب بجدول أعمال الخيارات السياسية بطريقة تجعل الآخرين يعجزون عن التعبير عن بعض التفضيلات لأنها تبدو بعيدة عن الواقع أكثر من اللازم وتتدرج أنماط السلوك بين الأمر والتعاون الطوعي على مدى الطيف من الإرغام على الإغراء الاقتصادي،ولو تأملنا في التجربة الإسلامية التاريخية، لاكتشفنا بوضوح ما يسمى اليوم بالقوة الناعمة في انتشار الدين الإسلامي ودخول الناس أفواجاً في دين الله، بدون فرض وقهر، وإنما بفعل الجاذبية الأخلاقية والسلوكية وثمة نصوص قرآنية عديدة، تؤكد هذا المعنى، وتحث عليه، بوصفه الوسيلة الفعالة لنقل الآخرين من موقع الخصومة والعداء إلى موقع الصديق والمؤمن والمنتمي إلى ذات المنظومة العقدية والأخلاقية قال تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وقال عز من قائل ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي

بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وقال تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم وغيرها الكثير من الآيات القرآنية الشريفة، التي تؤكد على العدل والصفح والحب، تنبذ كل أشكال القوة الخشنة التي تمارس بحق الآخرين مهما كانت درجة الاختلاف والتباين فأخلاق المسلمين مع بعضهم ومع خصومهم، هي من عناصر القوة الأساسية في التجربة الإسلامية التاريخية فالالتزام بمقتضيات الأخلاق الفاضلة في التعامل مع الآخرين، هو أحد عناصر القوة الأساسية، وليس عنصر ضعف ، يمكن أن يعاب عليه الإنسان ، فالإنسان يعاب عليه، حينما يتحول إلى وحش كاسر، يقتل ويفجر ويحرض عليهما لأن هذه الممارسات ليست لها صلة جوهرية بقيم الإسلام الخالدة، حتى لو تجلبب قائلها بالإسلام ان قوة المسلمين الهائلة، هي حينما يلتزمون بالقوة الناعمة للإسلام، وعناصر القوة الناعمة في الإسلام، هي تشريعات خالدة ومطلوبة من الإنسان المسلم في كل الأحوال والظروف والدفاع عن الإسلام في ثوابته ومقدساته، لا يمكن أن يتم بممارسة السلوك النقيض لقيم الإسلام، بل بالالتزام بالإسلام قولاً وفعلاً فقتل الخصوم والمختلفين، ليس من الإسلام في شيء، وتفجير دور العبادة ليس من الإسلام في شيء، وبث الكراهية والبغضاء بين الناس، ليس من أخلاق الإسلام في شيء فتعالوا جميعا نعيد حساباتنا على هذا الصعيد فحق الإنسان الأصيل أن يدافع عن

مقدساته وثوابته، ولكن بالوسيلة المشروعة، التي لا تأباها شريعة الإسلام وأخلاقه فالقوة الناعمة هي التي وسعت دائرة المنتمين إلى الإسلام تاريخياً فالملايين من المسلمين دخلوا الإسلام وتعرفوا عليه من خلال قيم الرحمة والرأفة والأخلاق الفاضلة وحسن الجوار وحرمة الدم والعرض والمال وبر الآخرين.